العرب
الأحد 2021/09/05
السنة 44 العدد 12170

آنماري إستر: علينا ألاّ نقلل أبدا من شأن القصيدة الصغيرة

شاعرة هولندية تضبط قصائدها على نغمات الرنين العالمية

تكتب الشاعرة الهولندية آنماري إستر نصوصا مختلفة عن السائد الثقافي، وهي ذات منحىً جديد في الكتابة الشعرية. ستكون نصوصها الشعرية المترجمة إلى العربية تدعيما لمضامين شعرية جديدة. فهي تذكّرنا في بعض التباساتها بفرانز كافكا. والشعر حقا في الأصل التباس وممكنات قصوى مطلوبة في التخييل وتوسعة لمفهوم الإيقاع. في هذا الحوار معها إطلالة على عالمها الشعري ورؤيتها لفن الشعر وموقفها من قضايا الشعر.

حازم كمال الدين
مسرحي وكاتب عراقي

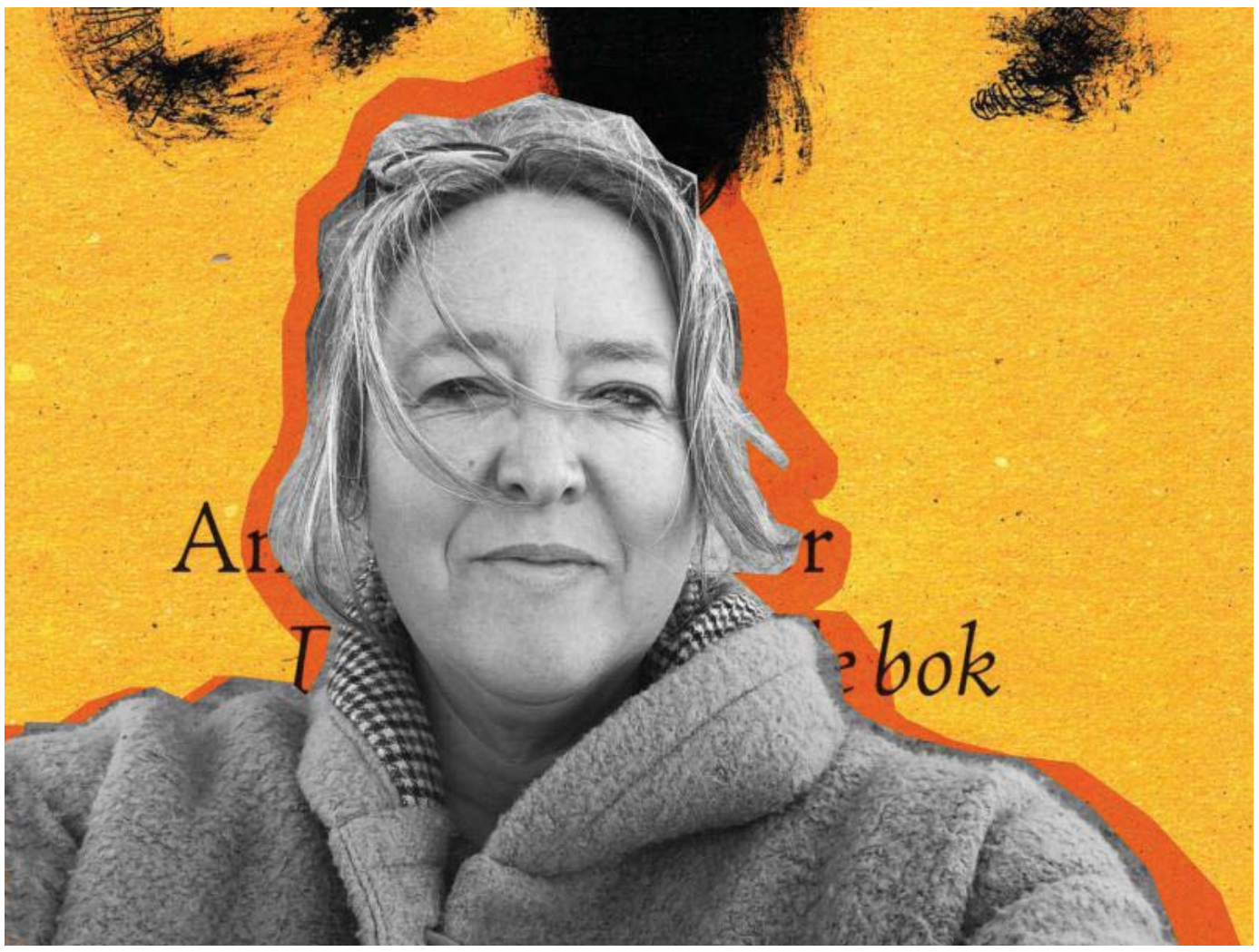

على الناس تعلّم القراءة بشكل أفضل

آنماري إستر (ANNEMARIE ESTOR 1973) شاعرة، وساردة، وأستاذة جامعيّة مختصة في علم الأدب، حصلت على أهم الجوائز الأدبية البلجيكية والهولندية ومنها جائزتا هرمان دو كوننك (Herman de Coninckprijs) لمرتين وجائزة يان كامْبَرت –Jan Campert prijs. كتبت لجنة جائزة هرمان دو كوننك عن أسباب منحها الجائزة على ملحمتها الشعرية "إبط التيس": نادرا ما يظهر مثل هذا الوصف لعلاقة حب شبه شيطانية في الشعر الهولندي. إنها مبنية بشكل متين إنها ملحمة أسطورية.

بحسب ما تصف نفسها تقول آنماري إستر إنّها هولندية بدرجة 39 في المئة، ليمبورغية بنسبة 53 في المئة. 48 في المئة منها إسباني، 24 في المئة إيطالي، 8 في المئة بربري، وتعيش في مدينة أنتوربن البلجيكية. لم تطلّ على العالم برأسها لحظة ولادتها، وإنّما خرجت عجيزتها حاملة برج الثور والجنسية الهولندية في خاتمة اليوم الثالث من عيد الفصح.

■ **الجديد:** أنت هولندية بدرجة 39 في المئة، ليمبورغية بنسبة 53 في المئة، 48 في المئة منك إسباني، 24 في المئة إيطالي، 8 في المئة بربري، وتعيشين في مدينة أنتوربن البلجيكية. هل هذا هو الشرط الأكمل ليكون الشاعر كونيا؟ كيف تنظرين من موقعك الخاص إلى فكرة المركزية الأوروبية في الثقافة والاجتماع وهي لا تزال حاضرة بقوة؟

> معظم الاختراعات البشرية طرأت أولا في مخيّلة الكتّاب والشعراء والروائيين والمفكرين الأحرار، على الرغم من نسبية الحرية

● **آنماري إستر:** في الحقيقة، إن ما كتبتُه في هذا الشأن يشير إلى فحص الـ"دي. أن.أي" (الحمض النووي) الكاشف لأصل الفرد، وهو فحص يمكن إجراؤه حاليا، وعبره يمكن للمرء معرفة أصوله وأصول أسلافه.

شخصيا، لم أقم بإجراء مثل هذا الفحص، لكنّني صادفت نتائج مذهلة لدى العديد من الأفراد: امرأة تركية تبيّن أنّ أسلافها أكراد؛ رجل فلسطيني أظهر الفحص أن أجداده يهود. بعبارة أخرى، أنا لا أؤمن بالتصنيف العرقي للبلدان. أكثر من ذلك، أنا أظنّ أن مثل هذا التصنيف يبعث على الأذى أكثر من الفائدة.

أنا محظوظة لأنّني أوروبية، قضيت حياتي في بلد يتمتع بوجود قطاعات متكاملة للخدمات الاجتماعية.

كان ممكنا أن أولد في السودان. إن حقيقة ولادتي هنا هي التي منحتني سمة القدرة على السفر بكثرة، وكذا سمة الحق في الإقامة والعيش في أيّ من دول الاتحاد الأوروبي.

إنني أعي جيدا أن هذا امتياز هائل. وأعي في ذات الوقت أنّ هناك أشخاصا، فنانين وشعراء، لم يغادروا أبدا مدنهم أو قراهم، طوعا أو كراهية.

أعتقد أن الشعرية التي تمتلك حقائب سفر تحمل القيمة الشعرية نفسها التي تتوطّن أرضها. وأعتقد أن بإمكاننا جميعا أن نكون كونيين بشكل متساو.

وأنا أرى بأننا عندما نكتب الشعر، إنما لا نتحدث عن تجاربنا الفردية، أو عن انطباعاتنا عن محيطنا، أو فرادة شخصيتنا، بقدر ما نعكس في المقام الأول جيناتنا التي يتم ضبطها على نغمات الرنين العالمية، وعلى الثقافة البشرية العالمية التي نشكّل جميعا أجزاء منها.

لعل الطريق الأمثل للدخول إلى الإنترنت أن يكون مسبوقا بـ: دراسة أساطير العالم أجمع في المدرسة، وإجراء فحوص الـ"دي.أن.أي" لمعرفة الأسلاف. تلك هي الطريق المثالية لكل مواطن على الكرة الأرضية، وبخاصة أولئك الخائفين من كل ما هو غريب، كل ما يبدو أنّه "ليس منّا".

الشعور بالتفوق الأوروبي حماقة. في الوقت نفسه لا شك أن أوروبا تمتلك صناعات جميلة للتصدير، أعني "الديمقراطية وقطاعات الخدمات الاجتماعية".

يجب أن تؤسس الإنسانية نظاما عالميا فيه الأغلبية تقرر بشأن كافة القضايا، استنادا إلى نصائح متعددة مصاغة جيدا ومعتمدة على دراسات أخصائيين متنوعة، ويعتني الأقوياء بالضعفاء. من دون أن يعني هذا أن أوروبا أفضل. لا، أبدا.

حاليا، ترى أيضا أن كلًا من الديمقراطية ونظام الرعاية الاجتماعية يحطّان في معسكر الخاسرين في أوروبا.

يتعين على كبار السن الأوروبيين التبوّل في حفاضاتهم 5 مرات قبل أن يحصلوا على حفّاضة جديدة. وهذه العملية يتم حسابها من قبل المدراء.

لو كنت عاطلا عن العمل، ستحصل على إعانة مالية مشروطة. وإذا لم تمتثل لما يطلبه منك المسؤول المتنمّر، يتم تحويل الإعانة المالية من "إعانة" إلى "قرض" يتوجّب عليك سداده.. لقد وصلت بنا الأمور إلى هذا المستوى.

غير أنّ علينا محاربة هذا النظام اللاإنساني المصمّم لضمان تحقيق أعلى الأرباح للرؤساء التنفيذيين. وعكس ذلك، فلن يحصل في المستقبل أيّ شخص على إعانة مالية، وسنخسر جميعا بقايا النقود في جميع أنحاء العالم. من الأفضل محاربة الفساد وتجاوزات السلطة أينما كانت. حارب الأنانية أينما كانت.

كيان مواز

■ **الجديد:** ما الشعر بالنسبة إليك؟ بحث عن إطار لصورة الذات، أم هروب من صورة الذات إلى صورة أخرى؟ كيان مواز نبتكره في مواجهة كيان تشكلنا فيه؟

● **آنماري إستر:** لقد وضعتَ هذا السؤال بطريقة ممتازة. إنّه كيان موازٍ نقوم بخلقه مقابل كيان نتشكّل فيه، نعم.

أعتقد أننا نعمل على خلق العوالم: عوالم متخيّلة، عوالم لامرئيّة ولاملموسة، عوالم تلتقي بالماضي وتتفاعل معه، ومن ثمّ تجعل المستقبل ممكنا.

معظم الاختراعات البشرية طرأت أولا في مخيّلة الكتّاب والشعراء والروائيين والمفكرين الأحرار، على الرغم من أننا لسنا أحرارا على الإطلاق. فالحرية المطلقة غير موجودة، لأن ذواتنا نفسها – الجسد والعقل – تتكون من كودات استلمناها من الماضي، من الماضي البعيد، من عصور ما قبل التاريخ، ولكن أيضا من الماضي القريب. كل متواليات التاريخ تلك كامنة فينا، نحن الذين خُلقنا من طين.

في نفس الوقت، لدينا قشرة فصّ جبهيّة، يمكنها اختلاق أشياء لم تكن موجودة. يمكنني على سبيل المثال أن أتخيل نفسي بعد عشر سنوات جالسة على شرفة في السطح مع أوفيد وبودلير، في بقعة تُسمّى حاليا إيطاليا، لكنها باتت تحمل اسما آخر. أنا وأوفيد وبودلير نشرب كأسا تهدينا أجنحة تكفل لنا التحليق لساعة.

هذه فكرة جديدة، إلّا أنها عتيقة في الوقت ذاته. عودة إلى صورة الذات تلك... أعتقد أنها في حد ذاتها باطلة تماما.

طوال حياتي، أنا حبيسة داخل هذه الذات، ولا بدّ لي من التعامل مع هذه الحقيقة، غير أني لست سوى حاملة معلومات ومواد مدّني بها هذا الكوكب.

والأمر متروك لي في أن أقوم بشيء مفيد بهذه المواد والمعلومات وأن أقوم بالعناية بكل ما حولي. وهذا امتياز أيضا.

لعلّ من المفيد، عبر وعينا وخياراتنا، أن نلتفت لبعضنا البعض. لقد كان ممكنا أن نكون كثيبا رمليا في الصحراء، والكثبان لا تستطيع مداعبة أيّ شخص ولا أن تدفع شخصا ما للابتسام.

الشبكة الكونية

■ **الجديد:** في الشعر العربي محطات كبرى تطورت خلالها القصيدة الشعرية عبر ألف وخمسة قرون من الشعر المدوّن، وقبلها قرون سبقت من الشعر لم تدوّن. هل هناك حضور ملموس للشعر العربي قديما وحديثا في اللغة والثقافة التي تنتمين إليها؟

● **آنماري إستر:** لا أعرف مدى ملموسية هذا الوجود، ولكن لا شك أن ثمة تأثيرات دخلت عملي مصدرها مختلف أنواع النصوص القديمة جدا. لا يمكن إنكار ذلك أبدا.

■ **الجديد:** اسمحي لي أن أعود مرة أخرى إلى السؤال، مستوضحا عن ثقافة اللغة الهولندية في الشعر. ومدى حضور الشعر العربي فيها، لو كان لهذا الشعر أي حضور عبر الاتصال والترجمة حديثا وفي قرون سابقة؟

● **آنماري إستر:** إنه لأمر مؤسف حقا، أنه لم تتم ترجمة أيّ شيء بالفعل إلى اللغة الهولندية لفترة طويلة جدا من الشرق الأدنى، أستثني حكايات ألف ليلة وليلة، ورباعيات الخيام، وشعر الرومي وحافظ. ولكن، لحسن الحظ فقد بدأ عالم الترجمة حديثا بالازدهار. إلّا أننا حتى الآن غير قادرين على التحدث عن تأثيرات حقيقية.

الشخص الوحيد الذي تمكّن من إجراء تغييرات حاسمة حقا هو حفيظ بوعزة (1970 – 2021). فقد ترجم كثيرا، وعقّب كثيرا. تشرفت مؤخرا أن أكتب عنه.

■ **الجديد:** ما الدرجة التي تعطينها للترجمة في التعويل على انتقال الآثار الشعرية والتجارب والخبرات والتصورات عن الشعر من لغة إلى أخرى؟ وهل يقلقك أن تنزاح القصيدة من كيانها الأصلي لتولد في كيان قد يكون مبتعدا كثيرا أو قليلا عن الأصل؟

● **آنماري إستر:** لست قلقة بشأن أيّ شيء. أنا أعمل مع مترجمين يتسمون بالضمير والدقة. وأنا أطلب منهم دائما ألاّ يترجموا بطريقة حرفية، قدر ما يصغون إلى موسيقى اللغة. أنا واثقة من أنه سيتم نقل ما هو جوهريّ بما يكفي من الجودة إلى تلك اللغة الأخرى.

■ **الجديد:** شعرك يموج بالأفكار والتصورات الحديثة والقلق الإنساني في مدينة ما بعد الحداثة، ولكنه يتمتع أيضا ببعد ميتافيزيقي ملحوظ.. ولربما نستطيع أن نصفه بأنه شعر كينوني، يصدر عن رؤيا كونية للوجود.. ما هي المرجعيات التي أسست لميولك وخياراتك ورؤاك الشعرية؟ من هم آباؤك (وربما أمهاتك) الشعريون؟

● **آنماري إستر:** يمكنني أن أذكر مجموعة طويلة من الكتّاب الذين تعمقتُ في أعمالهم. على سبيل المثال، مؤلفو الكتاب المقدس، أوفيد، متصوفة القرون الوسطى، شكسبير، أميلي وشارلوت برونتي، بودلير، ويليام بليك، ويليام بتلر ييتس، هوغو كلاوس، ألان جينسبيرغ، حازم كمال الدين، عدنان عادل، جان دمو، آندي فيرينز، جيس دي جروتر، ومعلمي وأستاذي فريدريك تورنر، بيد أني في الواقع أرى أنّ كل نص مغروس بعمق في الآلاف من النصوص الأخرى، وأن هذه الآثار يصعب التحقق منها بتفصيل دقيق، فنحن جميعا جزء من شبكة كونيّة.

■ **الجديد:** يبرز في شعرك حس فكه، فكاهة صادمة، تنهض على عناصر تؤسس للمفارقة.. ويبدو لي أنه ينطلق من تحد عميق الغور للنفاق الاجتماعي، والهوس الأيديولوجي، والتيه الاجتماعي المصاحب للتجربة الإنسانية الحديثة؟

● **آنماري إستر:** لقد اكتشفت الابتسامة بشكل متأخر نسبيا. في الواقع، لقد اكتشفتها بشكل أساسي من خلال لقاءاتي مع كتّاب وشعراء غير أوروبيين.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مرّتْ أوروبا بحقبة حالكة للغاية، ومن أحد أسبابها هو خضوعنا لنير عقدة الذنب التي أوهمتنا بها الكنيسة المسيحية البروتستانتية. ولقد انطبع ذلك على طفولتي. ولكن، لحسن الحظ تحطّمت تلك الأغلال في أوروبا بدءا من عام 1999 على وجه التقريب، وعثرتْ أوروبا على البسمة من جديد، و.. نعم، إن قيمة الابتسامة هائلة. علينا أن نبتسم كي نستطيع أن نجعل مواصلة الحياة في أوار الكارثة أمرا ممكنا.

■ **الجديد:** ما هي طبيعة العلاقة بين الكتابة الشعرية بالهولندية والكتابات بلغات أخرى في بلجيكا، وما طبيعة التواصل بين الشعريات الفرنسية والهولندية والألمانية، وكيف تقيّمين علاقتك الشخصية وعلاقة شعرك بهذا التنوع اللغوي البلجيكي؟

● **آنماري إستر:** أنا أرى أن اللغات الأخرى هي ثروة مضافة. حاليا، أقضي الكثير من الوقت في إسبانيا وقد بدأت اللغة الإسبانية تتسرب إلى اشتغالاتي. درست اللغة العربية أيضا لثلاث سنوات وكتبت عدة قصائد قصيرة بالعربية، على الرغم من أنها تصبح ذات تأثير فقط في حالة القيام بنطقها بأسلوب بسيط، لا بشكل منمّق.

كل لغة إضافية هي فرصة إضافية للحصول على أصوات أكثر جمالا. ويمكن للعقل البشري أن يتعلم بسهولة عشر لغات. لا ينبغي أبدا التقليل من شأن أدمغتنا.

> كل لغة إضافية هي فرصة إضافية للحصول على أصوات أكثر جمالا ويمكن للعقل البشري أن يتعلم بسهولة عشر لغات

■ **الجديد:** هل تعتقدين أن الشعر اليوم يمكن أن يكون مهددا في العالم بفعل التطورات التكنولوجية الحديثة وما فرضته على البشر من نزوع لاهث وراء الأشياء، وابتعاد بالتالي عن التلقائية والهدوء والصفاء الذي يتطلبه الشعر كتابة وقراءة؟

● **آنماري إستر:** نعم، كثيرون من المقيّدين بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات السريعة يتوهمون أن التسرع هو مقياس الأشياء. (وهؤلاء يقومون بذلك إما من خلال أوهام تكديس الإثراء السريع، وإما من خلال الإكراه الذي لا يطاق من أجل تحقيق أداء لاإنساني بحجمه).

سيتعين على هؤلاء نسيان ذلك، وإلّا سيسقطون في لجّة عميقة من الاكتئاب والخمول. لم يُخلق الإنسان لكي يستعجل نفسه.

دعاة السلام

■ **الجديد:** الإنسان آذى شقيقه الإنسان، بواسطة الحروب، والتوحش الرأسمالي، وطغيان الدكتاتوريات، وانتهى بإيذاء الكوكب بيت الإنسان، ما الذي يمكن للشعراء أن يفعلوه إزاء التهديد الذي يتعرض له بيتنا الوحيد بواسطة شتى أنواع الملوثات الفتاكة؟

● **آنماري إستر:** الاستمرار، في كتابة القصيدة، وخوض المواجهة بقوة الكلمات.

■ **الجديد:** الشعر أعظم من الفلسفة، لكن هل يمكن الاعتداد بشعر يخلو في رؤيا فلسفية؟

● **آنماري إستر:** كلا. أحدهما يتطابق مع الثاني. (أنا أعرف شعراء مزعومين يكتبون بلا رؤيا، لكن هذا هراء، نفاية. أحيانا تتم طباعة أعمالهم ونشرها بواسطة خدع جميلة، أو لأنهم كانوا يستلقون باسترخاء على الفراش الثقافي. شعراء على هذه الشاكلة ربما تظهر لهم مجموعة شعرية ثم لا تعود تسمع عنهم مرة أخرى).

علينا ألاّ نقلل أبدا من شأن القصيدة الصغيرة التي تبدو بسيطة ظاهريا. القصائد القصيرة لجان دامو هي مثال ساطع على ذلك.